(٧) فرانسيس باركمان : ممر أوريجون

بقلم : ديفيد ليفين

فى ربيع عام ١٨٤٦ قام شاب أرستقراطى من بوسطن يدعى فرانسيس باركمان مع صديق له بتجربة الحياة وسط هنود الغرب الأمريكى ، وذلك على بعد ألف ميل خلف الحدود . كان باركمان قد تخرج فى كلية هارفارد قبل ذلك بعامين حيث قضى بعض الوقت فى دراسة القانون ، ثم كرس نفسه لكتابة التاريخ ، وأراد أن يدرس الحياة الهندية من خلال الملاحظة الشخصية . وفى عام ١٨٤٧ نشر فى « مجلة نيكربوكر » اللقطات التى جمعها أخيراً تحت عنوان « ممر كاليفورنيا وأوريجون » . وهذا الكتاب الذى ألفه باركمان عندما كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره فقط ظل يطبع مرات عدة بعد ذلك على امتداد ما يقرب من مائة وخمسين عاماً . إنه كتاب ذو دلالة عميقة . ولعل بعض الأسباب الكامنة وراء نجاحه الأصيل والاهتمام المتواصل به قد تساعدنا على تقدير قيمته .

إن تاريخ مغامرة باركمان له أهمية أساس سواء من وجهة نظر الأدب أو التاريخ . وكان عدد من الكتاب الممتازين المعاصرين قد شرعوا فى تحويل تجارب مغامراتهم إلى فن أدبى ، ولم يكن كل هؤلاء الكتاب معروفين لباركمان . وقد قام ريتشارد هنرى دانا بسرد التجارب وبالدفاع عن قضية البحارة العاديين فى كتابه « سنتان أمام الصارى » (١٨٤٠) . وكان واشنطون إيرفنج قد نشر كتبه الشهيرة عن رحلاته فى إنجلترا وإسبانيا مع سرد لجولته فى الغرب

الأمريكى ، وذلك فى مجلد بعنوان « جولة فى البرارى » (١٨٣٥) . وفى عام رحلة باركمان نفسه إلى الغرب انكب اثنان من أفضل الكتاب الأمريكيين فى ذلك القرن على كتابة الأدب من خلال التجربة الشخصية فى الطبيعة وهما : هيرمان ميلفيل الذى نشر « تايبيه » وهى عبارة عن سرد لحياته وسط أكلة لحوم البشر فى جزر الماركيز ، وهنرى ثورو الذى أقام لنفسه مسكناً على بحيرة والدن وسجل بالفعل تجربته فى مواجهة الحقائق الأساس للحياة . وهى التجربة التى نشر عنها تقريراً بعد ذلك بسنوات قليلة فى واحد من أعظم كتبه « والدن أو الحياة فى الغابات » (١٨٥٤) .

وكل واحد من هذه الكتب يعتمد على الاهتمام بل الالتزام بدراسة سلوك الآخرين ، وبتقديم تقرير مفصل عن حياة التصقت بالطبيعة ، وباستخدام نظرة مؤلفه الجديدة كوسيلة للكشف عن حقائق جديدة متصلة بالحضارة الأمريكية . وقد دهشت الشخصية الرئيسة فى كتاب ميلفيل عندما علمت أن مجتمع أكلة لحوم البشر يعيش بدون صراع داخلى ، لأنه يعيش بدون استخدام للنقود ، بل تصل هذه الشخصية إلى النتيجة التى تؤكد أن إنسان الغرب المتحضر هو « أعنف المخلوقات وأكثرها توحشاً على وجه الأرض » . وذلك إذا ما أدركنا تأثيره التاريخى على الثقافات البدائية مثل جزر الماركيز والساندويتش . وكان هنرى ثورو يقلب التربة ويبذر حبوب الفول بالقرب من كونكورد مصغيا فى الوقت نفسه إلى موسيقى الفرقة العسكرية القريبة منه ، ومعلقاً ليس على الحياة فى جزر الساندويتش بل على الأمريكيين « الذين يقال عنهم : إنهم يعيشون فى نيوانجلاند أى إنجلترا الجديدة » .

بدأ فرانسيس باركمان رحلته عندئذ فى وقت اشتد فيه الاهتمام الأدبى بالشخصية الأمريكية والمصير الأمريكى ، وفى سنة أسماها برنارد دى فوتو « سنة الحسم » . وقد تصادف ميعاد مغامرته وبداية الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك . وفى الغرب يقابل المهاجرين القاصدين إلى ساحل المحيط الهادى ، وطائفة المورمون المضطهدة من أجل عقيدتها الدينية والتى شدت الرحال إلى يوتاه . وقبل العودة إلى الشرق حيث المستوطنات قابل جنوداً منهم الراحل إلى المكسيك ومنهم القادم منها . وقد بدت البلاد كلها فى بعض الأوقات وهى تموج بالحركة تجاه الغرب . ومهما كانت النتيجة حسنة أو سيئة فقد بدا أن المصير الأمريكى تقرر ؛ كما تقرر أيضا مصير القبائل الهندية والجاموس الذى تعودت قطعانه الجولان عبر السهور العظمى والتى كان مصيرها الاندثار والفناء .

وبالطبع فقد عرف باركمان بالفعل قبل القيام برحلته إلى الغرب أن أسلوب الحياة عند الهنود قد اندثر . وكان كتابه كله – مثله فى ذلك مثل كتب أخرى فى ذلك الوقت ابتداء من رومانسيات جيمس فينيمور كوبر إلى التسجيلات التاريخية التى كرس لها باركمان الجزء الأخير من حياته ككاتب – كانت كل هذه الكتابات موغلة فى روح الحنين إلى عالم عريق موغل فى القدم حكم عليه أن يتغير بلا هوادة . وعندما بلغ باركمان تلك البقاع لم يكن مستعدًّا فقط لدراسة العادات الغريبة والظواهر الطبيعية ، بل كان مقتنعاً أيضاً بأنها ستختفى على وجه السرعة .

وعلى ذلك فإن « ممر أوريجون » زاخر بالصور التى تعبر عن تكثيف ملحوظ كما لو كان الراوى قد قرر أن يمزج حياته بالتجربة وأن يحافظ على التجربة فى صور ضد التهديد الفورى المباشر بأن تجربة مشابهة لذلك لن تكون ممكنة بعد ذلك .

كان عليه أن يرى الهنود قبل أن يختفى أسلوبهم فى الحياة ويتلاشى . كان يتوق إلى تجربة صيد الجاموس ، ومشاهدة حرب هندية ، أو هجرة صيفية لقرية هندية . كان يستمتع ويبتهج عندما تصل إلى مسامعه أن قبيلة الداكوتا تخطط لحرب ضد من يسمون أنفسهم بالحيات (سنيكس) ، وقد أصيب بخيبة أمل عظيمة عندما فاتته الفرصة . وعندما يصاب بمرض يقعده عن الحركة فإنه يتصرف كما لو كان يريد أن يجسد كل القيم التى تعلمها فى حياته الدراسية . فيتحدى المرض ويجبر نفسه على المضى قدماً عبر مساحة واسعة ومسافة شاسعة فى مجهود يائس للبحث عن الهنود فى أوضاعهم الحربية الأصيلة . وبرغم مرضه ووحدته فإنه يجول على تلال وسهول جافة فى بحث لا طائل من ورائه عن جيش هندى كبير . وكان يحمل معه ثلاثة كتب : الإنجيل وأعمال شكسبير وأعمال بايرون . لكن الكتاب الأخير كان الوحيد من هذه الكتب الذى تعود قراءته فى أثناء مغامرته الطويلة . وكانت قوته فى تحمل المشاق فى وحدته بمثابة اختبار لرجولته .

وكانت الصور الممتازة التى نتجت عن هذه الاتجاهات قد عبرت عن أفضل خصائص الكتابة الرومانسية فى أمريكا القرن التاسع عشر . وبين هؤلاء المعاصرين استطاع ثورو وميلفيل فقط أن يقفا على مستوى باركمان نفسه فى دقة الصور التى أوردها : البرارى النابضة بالحياة الحيوانية من حيات وبوم وكلاب برية وذئاب ووعول وضفادع ضخمة وسلاحف وثعابين فى البرك . كذلك نرى « المستوى الرتيب للسهل » عندما يفرغ من الحركة ولا يبصر باركمان « شجرة

أو شجيرة أو أى شىء حى » ؛ فى حين يرتفع القمر فى سماء البرارى .

هناك أيضاً جماعة من الهنود ذوى المظهر الأشعث والرءوس المحلوقة على صهوة خيول صغيرة هزيلة محملين بلحم الجاموس ، كما نرى صورة قاطرة وقد بدت فاقدة للحركة ، ناهيك « بالقاطرات الطويلة البيضاء والآثار السوداء الضئيلة التى تركتها سنابك الخيول » فى « الممر العشبى الطويل فى البرارى » . ثم نفاجأ بعاصفة رعدية فى البرية تحيل الغابات كلها إلى منظر بنفسجى اللون « يطبق على العشب الطويل » ، ثم العربات التى تجرها الثيران وتعبر الغدير السريع الغادر ، « وموكب الجاموس الطويل يسير فى طابور هندى بكل الوقار والتصميم » على سطح التل البعيد .

وعندما يصف باركمان الجاموس فإنه يهتم بتجسيد خبرته بالأرض المتوحشة كما يبرز القطعان الضخمة التى تحتشد بها ، وذلك قبل أن يصف تجربته فى اصطياد ذكر واحد من الجاموس ! وعلى سبيل المثال فإنه فى أول صيد له يتتبع مرشده عبر الأعشاب الطويلة المتدرجة تجاه قاعدة التلال :

« من خلال واحدة من تلك الفتحات انحدر واد ضيق عميق ، لكنه كان يتسع كلما توغل فى البرارى . عندئذ دخلنا وسرعان ما رمحت خيولنا فوجدنا أنفسنا محاطين بالتلال الرملية الكثيبة . وكان نصف جوانبها المنحدرة عارياً ، أما بقية المنظر فقد تدثر بأسمال بالية من تجمعات العشب ، ومن بعض النباتات ذات الأشكال الخشنة والمتعددة التى بدا منها التين الشوكى الزاحف على الأرض . وانشقت الأرض عن وديان ضيقة لا حصر لها ، وفجأة أظلمت السماء وهبت ريح باردة لافحة مما ضاعف من وحشية وعزلة الشجيرات الغريبة والتلال المقبضة للنفس » .

وكان باركمان فى كل مطاردة تقريباً اشترك فيها والصيادون الهنود وأصدقاء السفر القلائل يذكرنا اتساع الأرض الفضاء المهولة فى الغرب ، والتضاريس المتقلبة ، ومصححاً الوهم الخادع عندما يسرع المرء بحصانه بقدر ما يستطيع فوق الأرض الوعرة التى تبدو مستوية فى الظاهر ، وفجأة لا يرى الأفق عندما تغرق الأرض بين تلين . وتتكرر العملية وتأخذ المطاردة الصياد مسافة أميال بعيداً عن زملائه ، وعليه أن يكتشف طريقه الوحيد فى العودة إلى المعسكر بعد انفصال وانعزال قد يصل أحياناً إلى ليلة بطولها !

يؤدى هذا النوع من التجربة إلى أن يسبق باركمان بعض الأساليب التى اتبعها التأثيريون أو

الانطباعيون فيما بعد : ففى الفقرة التى ذكرتها توًّا نجد هذا الأسلوب الذى يؤدى به أيضاً إلى التركيز على تنوع الرؤية الإنسانية تنوعاً كبيراً . إن عين الرسام التى حوصرت منذ لحظة مضت بالدخول المفاجئ فى الوادى الضيق تستطيع الآن فى الأرض المنبسطة أن ترى على البعد قطيعاً ضخماً من الحيوانات :

« وعندما ابتعدنا ما لا يزيد على ميل رأينا منظراً يأسر الألباب : على اليمين من جهة ضفة النهر وبعيداً عن البرارى المتورمة على اليسار ، وفى الأمام إلى أبعد مدى يمكن أن تصل إليه العين – كان هناك قطيع مهول من الجاموس . وكانت الخطوط الخارجية للقطيع تصل إلى حدود ربع ميل . وفى أجزاء كثيرة احتشدت بكثافة جعلت ظهورها المستديرة تبدو على البعد مسطحاً مستوياً من السواد ! وفى مكان آخر تناثرت . ومن وسط الحشد انبعثت أعمدة صغيرة من الأتربة عندما مارس بعضها التدحرج على الأرض . وقد دارت هنا وهناك المعارك بين الثيران التى استطعنا أن نراها بوضوح فى اندفاعها بعضها تجاه بعض ، كما وصل إلى آذاننا صوت ارتطام قرونها وخورها الخشن . » .

من هذه الزاوية البعيدة يصحبنا باركمان معه فى مطاردة للقطيع حتى يمنحنا إحساساً أو انطباعاً حادًّا من وسط الحشد عندما يندفع القطيع فى الوادى الضيق ، وذلك من خلال وصفه « لاقترابه على الاختناق من جراء التراب وللدوار الذى انتابه بسبب قرقعة الحوافر » . يقول :

« فجأة غمرتنى الدهشة عندما قفزت الحوافر فى حركة راقصة إلى أعلى ، وتعالت الذيول فى الهواء ، ووسط سحابة التراب بدا قطيع الجاموس وكأن الأرض تبتلعه أمامى ! »

وعلى أية حال فإن هذا الوصف المتصاعد لقطيع الجاموس يركز الصورة بوضوح على المخلوق المنفرد فى مواجهة الصياد الوحيد القابع بجوار النهر منتظراً ومراقباً للجاموس عندما يأتى ليرتوى . وباستثناء صفات أخرى قليلة وعدم تحديد زاوية النظر بدقة فإن باركمان يقدم لنا فى هذا المجال المنهج والنظرة الأدبية تجاه الطبيعة التى أصبحت مرتبطة فى قرننا هذا باسم إيرنست هيمنجواى :

« جلس الصياد فى هدوء على الرمال . أصغى بكل جوارحه ، عندئذ بلغ مسامعه صوت الحوافر الثقيلة الرتيبة للثور الآخذ فى الاقتراب . وفى اللحظة التالية رأى حركة بين أعواد البوص والعشب الطويلة بالقرب من البقعة التى يشق فيها الممر مساره بمحاذاة الضفة . برز

رأس أسود هائل فى حين ارتفعت القرون وسط كتلة من الشعر الكثيف المتشابك . ومع الانحدار أوشك الثور أن يندفع إلى قاع النهر . وتوقف وسط الرمال وقد ملأ المنظر تماماً ، وأمامه تلألأ غدير من المياه فحنى رأسه ليرتوى . وفى إمكانك أن تستمع إلى المياه وهى ترغى وتزبد متدفقة داخل زوره العريض . رفع رأسه وتساقطت قطرات المياه من لحيته المبتلة . وقف وقد بدت على مخايله ومضات غباء غير مدرك للخطر الذى يحيق به . وبلا ضجة شد الصياد زناد غدارته . وفى جلسته على الرمال رفع ركبته واضعاً عليها كوعه لكى يحتفظ بمستوى سلاحه الثقيل ثابتاً فى مواجهة هدفه . بدأ الثور فى تصميم بطىء زحفه فوق الرمال تجاه الجانب الآخر . تقدم بساقه الأمامية ومسح البقعة بعينيه اللتين غطاهما شعره الكثيف . وتماماً صوب نقطة فى كتفه وجّه الصياد غدارته . واستجاب صوت انطلاقها مع لمسة إصبعه ، وفى الحال بدت نقطة حمراء صغيرة فى منتصف البقعة العارية . ارتعش الثور واجتاحه الموت الذى لم يستطع أن يدرك متى سرى فى كيانه ؟ لكنه سار مترنحا من الثقل كأن شيئاً لم يكن . وعندما توغل فى الرمال ، توقف ، وترنح ، وانحنت ركبتاه تحت جسده ، وغطس رأسه فى الأرض . عندئذ سقط هيكله العظيم كله على أحد جانبيه ، وتدحرج فوق الرمال ، ومات قبل أن يبدأ صراعه المتوقع مع الموت ! » .

والنوع نفسه من المهارة التصويرية ساعد باركمان فى أن يضيف إلى لقطاته الإنسانية عمقاً ليس بالإنسانى فقط بل تاريخيا أيضاً . وكان منذ البداية قد قدم لنا مجموعة ملحوظة ومتنوعة من البشر الذين يستعدون لمغادرة مستوطنات الحدود . وعندما بلغ حصن لارامى بعد أسابيع من السفر قابل قرية هندية مهاجرة ومجموعة ضخمة من المهاجرين الذين يمموا وجوههم شطر الغرب . إنه يصف المهاجرين بمنتهى الدقة فهم : « حشد من القبعات العريضة ، والملامح الهزيلة ، والعيون المحملقة . . . فيهم رجال طوال القامة وخشنو المنظر يرتدون أزياء بنية اللون تم نسجها بالمنزل ، أما النساء فوجوههن مثل الأموات وقاماتهن طويلة مسطحة ، احتشدن كما لو كان شيطان حب الاستطلاع قد تسلط عليهن فبدأن فى التنقيب عن كل ثغرة وركنّ فى الحصن » . وقد لاحظ باركمان بمنتهى الدقة عدم إدراكهن الشامل للهدف من غزوهن ، وعمق قلقهن وعدم ثقتهن فى الغرباء ، وذهولهن أمام ضخامة الفضاء الرحب التى تتميز به البقاع التى عبرنها ببطء . يقول :

« لقد ظهرن مثل الرجال تماماً عندما فقدن خصائصهن ، وبدت الدهشة والذهول على

سيمائهن مثل جماعة من تلاميذ المدارس تاهت فى الغابات ! » .

استطاع أن يلتقط التصميم وعدم الاستعداد والبؤس البادى على هذه الأسر المهاجرة فى صورة رمزية تجعلهم آخر الحجاج فى حركة الاتجاه إلى الغرب ذات ثلثمائة العام من العمر .

لقد لاحظ بطول الممر بجوار نهر بلات :

« الحطام المتناثر للموائد القديمة ذات الأرجل المخلبية ، الناعمة والمدهونة جيداً ، أو المكاتب الضخمة المنحوتة من خشب البلوط . وبلاشك فإن بعضها بقايا عصر الأجداد الذى ازدهر أيام الاستعمار ، ولابد أن تكون كلها قد تقلب بها الزمن تقلباته الغريبة . وربما تكون قد أحضرت خصيصاً من إنجلترا . ومع تدهور أحوال أصحابها حملت عبر الإليجانيز صوب البرية فى أوهايو أوكانتاكى ثم إلى إلينوى وميزورى ، وأخيراً استرخت فى عربة الأسرة فى رحلتها المملة الطويلة إلى أوريجون . لكن كان من الصعب التنبؤ بمظاهر الحرمان القاسى التى يمكن أن يلقوها على الطريق ، لأنه سرعان ما ألقى بهذه البقايا العزيزة على النفس لكى تجف وتتشقق فوق البرارى الحارة . »

وتشتمل صور القرى الهندية المهاجرة على الخاصية التاريخية المؤثرة نفسها ، لكن باركمان فى هذه الحالة ليس فى حاجة إلى أن يعلق بالتحديد على دلالاتها الرمزية : فمنذ لقائه الأول خارج حصن لارامى وفى أثناء مكثه بين الأوجيلالا والداكوتا فى التلال السوداء – قدم لنا صوراً عدة لقرية الرحل الذين يسافرون طوال اليوم ، ثم يرقدون فى خيام يقيمونها بسرعة قبل مجىء الليل . وبعد ذلك يختفون فى الصباح بالسرعة التى اختفى بها نفسها هؤلاء الهنود المنكوبون وقطعان الجاموس التى عاشوا عليها من على سطح السهول العظمى . ومن خلال وصفه للعادات الهندية والسلوك المرتبط بها ، وعنصر المفاجأة فى حلولهم ورحيلهم ، ومع صورة الحشود المتراصة – فإن كل هذا يوحى إلينا من خلال الحواس بالفناء الذى فى انتظارهم .

لكن نغمة باركمان فى وصف الحياة الهندية تبرز صدى التواضع الذى تميزت به فكرة مواطن نيوإنجلاند عن التقدم الذهبى : ففى تحركه بين الهنود يشبه باركمان إلى حد كبير تومو الراوى فى قصة هيرمان ميلفيل « تايبيه » ، لكنه على النقيض من راوى ميلفيل : فإن باركمان لا يتعلم إطلاقاً أن يحترم الناس الذين يقوم بتسجيل حياتهم . فهو يتكلم بنغمة مواطن نيوإنجلاند المتحضر الذى يراقب مخلوقات أقل منه مستوى ، كما تبدو لغته مملوءة بالايماءات إلى المتوحشين ، والخزعبلات ، وقاطعى الرقاب ، والمولدين . وعندما يركز على قبح الحياة الهندية

أو خشونتها فإنه يخلق صوراً حية وغالباً ما تكون كوميدية ؛ مما جعل قراء كثيرين يرحبون بها على أساس أنها تصحيح للروايات المسرفة فى العاطفية والتى تتخذ من الوحش النبيل مضمونا لها . ولنأخذ على سبيل المثال وصفه للهندية ذات الثمانين عاماً والتى تنتمى إلى قبائل الأوجيلالا :

« كانت الروح المتحركة فى المستوطنة – امرأة عجوزاً فى الثمانين من عمرها . إنك تستطيع أن تحصى كل ضلوع جسمها من خلال تجاعيد بشرتها الرقيقة . وكان وجهها الجاف أقرب فى شكله إلى جمجمة عجوز منه إلى منظر الكائن الحى ! وفى البقعتين الغائرتين المظلمتين لمعت فى القاع عيناها الصغيرتانالسوداوان .وتدلت يداها على هيئة حبل سوط وسلك. أما شعرها فكان يتردد بين البياض والسواد مرسلا فى إهمال تام إلى الأرض . وكانت عباءتها (الوحيدة) قد صنعت من بقايا جلد جاموسى أخى عليه الدهر ، والتف حول خصرها بحبل من القنب . ومع ذلك فتشريح هذه الهندية العجوز النحيلة يدل على قوتها بشكل مدهش . لقد أقامت المسكن ، وحمّلت الخيول ، وقامت بأشق الأعمال فى الحصن . ومنذ الصباح حتى المساء كانت تملأ المسكن حركة وحيوية ، وتصيح كصراخ البومة عندما تقع عيناها على ما لا ترضى عنه ! »

فى هذا المقتطف وفى صور أكثر إثارة للملابس والعادات الهندية يقدم لنا باركمان معلومات حية من وجهة نظر غير منتم وغير مستوعب للدلالات الكامنة وراءها والذى لا يمتد نقده الذاتى إطلاقا إلى ما وراء ذكريات مشاق السفر التى لا تثير سوى روح الدعابة المرحة . كان مخبراً أميناً ورجلا شجاعا ، لكنه كان مقيداً بمفهوم ضيق جدًّا للثقافة الهندية . إنه يستطيع أن يصف بطلا من قبائل الأوجيلالا على أنه يشبه « الإله أبولو مصنوعاً من البرونز » ، كما يتكلم « بنبرات عميقة مثل آلة الأرغن » ، لكن باركمان يذكرنا بأن « البطل لم يكن سوى هندىٍّ على أية حال » .

هكذا يبدو كرم الضيافة الهندية ، وحياة القبائل الرحل ، والديانة الهندية فى صفحات باركمان بمثابة تجربة لم يستوعبها ، بل إن الفكر الهندى مثل الحديث الهندى يبدو فارغاً إذا ما قيس بمعايير التقدم التكنولوجى والدينى المسيحى الذى يؤمن بالإله الواحد . فعندما يتكلم باركمان عن الأوجيلالا يقول :

« كانوا متوحشين بمعنى الكلمة ، ولم تكن تصرفاتهم أو أفكارهم قد تطورت قيد أنملة من

خلال احتكاكها بالحضارة . لم يعرفوا أى شىء عن الشخصية القوية والحقيقية للرجال البيض ، وكان أطفالهم يصرخون مرتعبين كلما وقعت أعينهم على ... لقد كانوا تجسيداً حيًّا للعصر الحجرى ! » .

بعد هذه المقدمة لقبائل الأوجيلالا وأسلوب حياتها يتنبأ باركمان على الفور باندثار الجاموس وبناء عليه خراب « المجتمعات الرحل الضخمة التى تعتمد عليه فى الاستمرار فى حياتها » يقول : « إن الهنود سرعان ما تنهار أخلاقياتهم من جراء معرفتهم بالويسكى ، وسرعان ما يجتاحهم الرعب بسبب المراكز الحربية لدرجة أنه على مدى سنوات قليلة سيتمكن المسافر من اجتياز بلادهم وهو يشعر بالأمن إلى حد معقول . وسيختفى خطرها وسحرها فى الوقت نفسه » كان باركمان يدرك اتجاه حركة التاريخ ، لكنه لم يستوعب طبيعة الحياة عند الهنود . كان وجودها بالنسبة له متمثلا فى خطرها وسحرها ، كمجرد تجربة وصورة ، وليست كقيمة فى ذاتها .

ومن خلال هذا القيد المؤسف كما أنه من خلال قوته وفهمه كان باركمان يمثل ثقافة عصره الأمريكية الأدبية . وبالطبع فإن هنود الغرب فى تلك الأيام غالباً ما كانوا يشكلون تهديدًا حقيقيًّا لأى غريب يتنقل عبر بلادهم ، لكن يبدو أن باركمان لم يكن قادرا على إدراك العلاقة بين العداوة الهندية والتهديد الذى فرضته الهجرة البيضاء على حياتهم . لم يستطع أن يتجاوز حدود وجهة النظر التقليدية للرجل الأبيض . وطالما علق على الحاجة الملحة لمعاملة الاعتداءات الهندية بقسوة حتى يتجنبوا من ثم الهجمات التى يشنها الهنود على سبيل احتقارهم والاستهزاء بهم . وعلى الرغم من أنه لم يواجه خطرًا حقيقيًّا من الهنود فإنه يصف عن قرب مآزق كثيرة ويروى قصصاً كثيرة لعمليات القتل .

وعلى الرغم من نقده لصور الهنود المسرفة فى العاطفية فإن باركمان حقق فى « ممر أوريجون » واحداً من أكثر التسجيلات حيوية لدينا عن حياة الهنود والمهاجرين على التلال العظمى . إنه لا يتغاضى عن ذكر البؤس الذى تسببه الحشرات ، والحرارة الخانقة ، والعواصف الجامحة ، والخيول الهاربة ، والزملاء المشاكسين ، والأمراض التى تفقد الإنسان كل حيويته ! إن صورته للزنجى الذى كان يموت جوعاً وظل يجول فى البرارى ثلاثة وثلاثين يوماً ليقيم أوده على الصراصير والسحالى فقط – هذه الصورة تقدم لنا زاوية لنرى منها الأعاجيب التى قابلها فى الغرب ، ولمحة مرعبة لحياة الوحدة والعزلة تضاهى فى قوتها صورة ميلفيل للشاب خادم القمرة

الذى يصيبه الجنون من إحساسه الغارق بالوحدة وسط الهدوء الشامل للمحيط الهادى . وحتى فى بعض أوصافه لعزلته هو شخصياً وخاصة عندما يبلغ به المرض أسوأ مراحله ، فإن باركمان يشركنا معه فى تجربة البؤس والبطولة المرتبطين بالمغامرة فى الغرب .

هنا كما ألمحت من قبل – فإن تسجيل باركمان الوصفى يسعى إلى الحدوتة الرمزية التى تجعل من الصفات الأخلاقية أناساً يمشون على الأرض ، لأنه سيقضى بقية حياته فى بحث أدبى عن الهنود الحقيقيين التاريخيين ، وسيقاتل ضد مرض أكثر قسوة فى سلب حيوية الإنسان من ذلك الذى عانى منه فى أثناء رحلته . ووسط كل الشخصيات والأنماط المتنوعة التى صورها باركمان فى « ممر أوريجون » فإنه لم يفقد تقريباً نظرته الفريدة وقدرته فى فهم الدلالة التاريخية للتجربة - وكلٌّ من المحاسن والعيوب لإسقاطاته على الحياة الهندية الفعلية تدين بشىء إلى اهتمامه بالصورة الأسطورية للهنود . وعندما يقابل حفدة دانيال بون وسط جماعات المهاجرين فإن نفسه تتوق فى الحال إلى أسطورة مكتشفى الحدود . وفى وصفه لشخصية مرشده هنرى شاتيون فإن باركمان يجد الواقع مبرراً للأسطورة !

إن هنرى شاتيون بطل أمى تلقى دروسه على يدى الهنود وفى أرجاء البرارى ، وكان « عقله ذا رهافة طبيعية » ، ووجهه « مرآة للاستقامة والبساطة والعطف » ، ويملك فهماً طبيعيا ثابتاً للشخصية الإنسانية . وعندما قابله باركمان كان عائداً لتوه إلى سانت لويس بعد قضاء أربع سنوات فى الجبال الصخرية ، وكان يستعد لشد الرحال مرة أخرى على الفور . لقد قاتل الدب الأمريكى الرمادى الوحشى ، ويشعر بين الهنود أنه يعيش وسط أهله تماماً،ولا يكن لزوجته الهندية سوى الإخلاص ، وهى التى تموت ميتة مؤسفة بين الأحداث التى يسردها باركمان . يصفه باركمان فى لحظات قليلة لكنها ذات تأثير لا ينسى عندما يتحرك شاتيون ببساطة وسهولة وسط قطيع الجاموس ، فهو « لا يبدو أنه يعتبر وجوده بينها بأكثر من مجرد فرد من القطيع نفسه » . إنه يعتبر الجاموس « كنوع من الزملاء » ، ويخبر باركمان أنه لا يشعر بالوحدة على الإطلاق عندما يحيط به القطيع . وهو يشبه ليذر ستوكنج بطل رواية كوبر فى عدم تحمله لإطلاق الرصاص العابث على هذه المخلوقات المتوحشة . وهو يقوم بكل قوة – فى رواية باركمان – بدور الشخصية الرئيسة الفاضلة للجندى الذى لا يحمل فى قلبه سوى الولاء والذى انضم إلى الجماعة من أجل رحلة العودة إلى المستوطنات .

إن العودة إلى هذه المجتمعات الآمنة كان بالنسبة لباركمان عودة من « الصحارى القاحلة ،

المغطاة باليسير من العشب الكثيف الذى يقتات عليه الجاموس » ، إلى السهول الفردوسية » المغطاة بسندس من العشب الندى المترعرع الذى تناثرت الزهور خلاله » ، إلى البرارى الخضراء التى تغنى بها « الشاعر والروائى » .

وإذا كان باركمان قد عبر عن ارتياحه لعودته إلى المستوطنات فإنه يظل مخلصا لنداء البرية التى يستعيد ذكرياتها بأسى . إنه هنرى شاتيون الذى يجسد هذا الانجذاب فى الفقرة الأخيرة فى نهاية الكتاب . يصفه باركمان هناك وقد ارتدى ملابس المدينة العادية التى تعبر عن « ذوقه البدائى الطيب » ، بل إن المطلوب منا فى النهاية أن نتخيله ممتطياً صهوة الحصان الذى أهداه إليه زميل باركمان ومطلقاً غدارة باركمان فى الجبال الصخرية . ويبدو هنرى شاتيون من خلال خيال باركمان كدليل حى على إمكان التلاقى بين الماضى المندثر والمستقبل الحتمى ، بل إن باركمان نفسه يبمم وجهه شطر الشرق تقله عربات السكك الحديدية والسفن البخارية لكى يجسد هذا الإمكان فى الكتاب .

هكذا لا يشبه شاتيون ليذر ستوكنج بطل كوبر فقط ، وهو البطل الذى يجسد فضائله ، بل يشبه بالكنجتون بطل ميلفيل ، ذلك البحار الذى قابلناه فى « موبى ديك » والذى عاد لتوه إلى نانتاكيت من رحلة بحرية استمرت لثلاث سنوات ، لكنه يشرع على الفور فى الإبحار مرة أخرى . كذلك لا يستطيع شاتيون أن يمكث مدة طويلة فى المستوطنات فلابد له أن يعود إلى الجبال . وكان التأثير الطاغى الذى مارسه كتاب باركمان صدى للهالة التى تحيط بحياة رجال مثل شاتيون وغيره من الصيادين الذين يتميزون بخشونة أكثر منه فى معايشتهم للإثارة والخطر والمعاناة . وأحيانا تبدو البرارى الخاوية « تجسيداً للسكون والعزلة » فهى تبدو ذات مرة عند الغروب « مثل محيط هادر تحجر فجأة عندما بلغت أمواجه قممها التى قبع نصفها فى الضوء والنصف الآخر فى الظل فى اللحظة التى غمرتها فيها أشعة الشمس الصفراء كالذهب . وكانت الشجيرات الخشنة ذات المنبت البرى تنتشر فى كل مكان فى حين غطت أوراقها الشاحبة الكثيبة التل والسفح » . وبعد ذلك فى الحال تزخر بقعة التل القريبة بالأحداث العنيفة عندما يقوم صائدو الأوجيلالا بقتل الجاموس بالقوس والسهم . ويقدم لنا باركمان صورة لا تنسى لبعض الشباب الذين يقومون بشرخ عظام فخذ الجاموس ، ثم ينهالون على النخاع لالتهامه . تلك هى الحياة ذات التنويعات الخصبة والبرية فى القارة ذات المساحات الواسعة التى يحتفى بها باركمان فى عشرات المناظر والصور واللقطات . إنه يقدم التجربة ذاتها إلى قرائه الشرقيين ، كما

أنه يمدهم بتقرير ممتع عن البلاد الهائلة التى يسرى فيها الغزو بلا هوادة . وعلى الرغم من أن بهجته تزيد على أسفه فقد تجاهل كلا الإحساسين فى تقديمه لهذا التقرير .

ويمكن القول بأن نتائج تلك الرحلة البطولية ظلت مع باركمان بطول حياته المديدة فيما بعد ، فلم يسلم قط من المرض تماماً لدرجة أنه اضطر إلى إملاء معظم تقريره على كوينسى شو صديقه الذى رافقه فى الرحلة . وقد رسخت مكانة باركمان تماماً فى الأدب الأمريكى بفضل هذا الكتاب الذى ألفه فى شبابه ، لكنه غالباً ما عاد إلى الكتابة عن هذه التجربة لكى يحدد مكانتها تاريخيا بين الأحداث العظيمة وهو ما يشكل إنجازه العظيم : ففى السنوات الأربعين التالية ألف كتابه « تاريخ فرنسا وإنجلترا فى أمريكا الشمالية » واحتفى فيه بإنجازات الكاشفين ومعاناتهم ، كذلك احتفى بالمبشرين والجنود فى القرون التى بدأت مع أول مستوطنات فرنسية حتى الغزو الأنجلو – أمريكى لكندا عام ١٧٦٣ . وفى أثناء صراع باركمان الذى استمر أربعين عاماً لكى يكمل هذا التاريخ امتدت الحدود الأمريكية إلى ساحل المحيط الهادى ، ومات باركمان فور إعلان التعداد الرسمى للولايات المتحدة والذى أثبت أنه لم يعد هناك ما يسمى بالحدود !

معالم الثقافة الأمريكية

بنجامين كوارليس

عمل بنجامين كوارليس أستاذا للتاريخ فى كلية مورجان ببالتيمور منذ عام ١٩٥٣ . وقد حصل على أول درجاته الجامعية من جامعة شو ، ثم على درجتى الماجستير والدكتوراه من جامعة ويسكونسن . وحاز ثلاث منح للزمالة من مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ، واثنتين من مؤسسة كارنيجى لتطوير التعليم ، واثنتين من هيئة جوليوس روزينوالد . كما حصل على زمالة معهد جون سيمون جوجنهايم ، ومنحة من المجلس الأمريكى لجمعيات التعليم للعمل بموجبها .

وهو مؤلف « فردريك دوجلاس » ، و « الزنوج فى الثورة الأمريكية » ، و « لنكولن والزنوج » ، و « دور الزنوج فى بناء أمريكا » وقد قام بتحقيق ونشر « سيرة فردريك دوجلاس » .

ودكتور كوارليس عضو فى هيئة تحرير « جريدة التاريخ الزنجى » ، وعضو فى الهيئة الاستشارية لمعهد فردريك دوجلاس لفنون وتاريخ الزنوج . وعضو لجنة توثيق الحقوق المدنية التابعة لمؤسسة فورد ، وعضو هيئة المحررين الاستشاريين الذين أشرفوا على تحقيق مذكرات بوكر ت . واشنطن .